

وحدة الأمة: من المعطى المفقود إلى المطلب المنشود

وحدة الأمة: من المعطى المفقود إلى المطلب المنشود

أدریس مقبول

أستاذ جامعي المغرب

يعتقد كثيرون أن وحدة الأمة معطى سهل لا يحتاج إلى اجتهاد لبلورته أو تأسيسه، وذلك بالنظر إلى ما يتراهى من جوامع ونظام مشتركة من قبيل التاريخ والدين واللغة والمصالح المشتركة، والحق أن هذه المعطيات وإن كانت نظريا لا تحتاج إلى استدلال أو برهان على موجوديتها، لقياها الموضوعي في البنية الذهنية للشعوب الإسلامية، إلا أن عوادي التناول الذاتي للقرارات الواقعية أو التأويل الضيق لانكسارات التاريخ، يعطل من فاعلية المعطيات فتغدو مضمراً ومفقودة تحتاج للمجهود المشترك من أجل تفعيلها ، والخروج من حجر المُنازَعة إلى فضاءات الجماعة كما يدعو إليها القرآن الكريم" ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم" [1] .

وإذا كانت طبيعة الاجتماع الإنساني لا تخلو من لوازم الاختلاف الذي تملئه طبائع العقول وما تبنيه كل فرقة من أصول، فإن مطلب الوحدة يستلزم التفكير الإيجابي في تحقيق مقصد العمران على أرضية الائتلاف الخيري مصداقاً لقول الباري سبحانه "وتعاونوا على البر والتقوى" [2] ، وإن النتيجة الطبيعية ستكون هي الانحطاط إلى التهار والتذري على أرضية الاختلاف الشري الذي حذر منه القرآن الكريم حين قال "ولا تعاونوا على الإثم والعداون" [3] .

وإذا كان مطلب التعاون في أجندة الأمة يمكنه أن يكون بداية الطريق ونهايته، باعتبار الوحدة تحتاج للتعاون لبنائها، كما تحتاج التعاون لتنميتها، فإن التعاون يأتي بالضرورة ناتجاً عن مبدأ التعارف الذي لا تتنازل جماعة عن الأخذ به إذا هي أرادت استمراريتها وبقاءها في زمن التكتلات والأحلاف. فالتعارف سابق على التعاون ومعين عليه، وهو في الوقت ذاته سـَادٌ لأبواب من سوء التفاهم التي يكون منشؤها ما يصنعه كل فريق عن الآخر من صور متخيلة.

وكما تتوقف وحدة الأمة على مبدأ التعارف الحقيقي بين أبنائها ومكوناتها ، تعارفاً مباشراً وصادقاً لمستقبل الإسلام القادم بعيداً عن المهاارات والأوهام التي تسكن عقول الصغار فتزيد قابلية تهم للتواصل ضعفاً، يحتاج التعارف بين مكونات الأمة إلى تقديم ما ينفعها في قابل أيامها على ما يحررها عن أداء مهمتها في إماماة الأمم.

وليس تعامل المسلم مع أخيه المسلم كما يقول الدكتور طه عبد الرحمن " مجرد تحصيل خدمات منه أو

توصيلها إليه-أي مطلق تعاون- وإنما جلب صلاح إليه أو استجلابه منه ودفع فساد عنه أو استدفائه به، ذلك لأن التعامل بين المسلمين يتغنى الارتفاع إلى رتبة الأمة، وهذه الرتبة لا تدرك إلا بالعمل التعارفي، أي بتعاون الأشخاص داخل الأمة على المعروف" [4].

ولا نصير إلى حالة التعاون بين عناصر الأمة ومفرداتها وهو المجهود المطلبي الأسمى باعتباره عبادة إلا بقدر كبير من توفير آليات الصبر، التي تتجسد في القدرة على تنزيل الذات منزلة الآخر، وتوسيع دائرة المشترك من طريق تنميته المستدامة، وتضييق دائرة المختلف بشأنه من طريق إضعاف أسيابه وقطع أوردته.

ليس من شك في أن المجتمع الإسلامي الأول لم يقم بنيانه على خلايا الجنس أو العرق أو اللون أو القبيلة أو الولاء للحاكم أو التراب، ولا على التمايز بين الذكر والأنثى وتقسيم الطبقات بين حر وعبد وسيد ومسود وشريف ووضيع، ولا على التفاخر بالأنساب والأولاد والثروة، بل جمع التصور الإسلامي للمجتمع العالمي البشري على وحدة المواطنة الإنسانية [5]. كما جمع المؤمنين داخله على مبدأ خدمة بعضهم لبعض، فالآمة الإسلامية آمة متكافلة ومتناصرة ضد الظلم، وهي آمة يسودها التضامن، ويأخذ فيها الغني بيد الفقير، والقوي بيد الضعيف، وتتكلف فيها الدولة بتوفير العيش الكريم للمحتاجين وتتضمن لهم ما يكفل لهم القوت ومواجهة المرض والآفات والعجز، ذلك لأنّه مجتمع يقوم على رابطة الأخوة البشرية في أوسع نطاقها تضامن فيه آمة الإسلام تضامنا يجعلها كما جاء في الحديث: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكي منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" [6]، وجاء في القرآن: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ" [7]، فهم لا يكونون على وصف أشرف من الأخوة ولا أدنى منه، وذلك بسبب مبدأ تآخيهم في التوجه لمعبود واحد جل جلاله، وتآخيهم فيما يقتضيه التوجه التوحيدى من واجب النصرة والمؤازرة والموالاة والسعى فيما يكون به قيامهم جميعا شهوديا امثلا للأمر الإلهي "ولتكن منكم آمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون" [8]. فالدعوة صريحة للخروج من الطائفة أو الطوائف الممزقة مزعا والتىارات المتفرقة شذر مذر لتشكيل كيان الأمة الذي تتساند فيه المكونات لتفعيل واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتعااضد الكل لتنمية الأساس النفسي الإيماني الدافع لكل خير والمانع من كل شر، وذلك هو الطريق إلى الفلاح بمعناه القرآني الذي يجمع بين بعده المادي وبعده المعنوي الروحي المتجسد في حالة الاطمئنان والرضا والسعادة.

إن مفهوم الأمة كما ورد في القرآن الكريم يذهب بعيدا في تأكيد الوحدة المؤسسة على طاعة الله وحده والعبودية له دون سواه، حيث تسقط كل المعبودات دونه، يقول تعالى: "إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أَمْةً وَاحِدَةً

وأنا ربكم فاعبدون" [9]، ويقول تعالى أيضاً "إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَقُواْز" [10]. والمراد هنا هو أمة الأنبياء ، أمة الإيمان باهـ تقابلها الأمم والشعوب الكافرة باهـ الرافضة لمنهج إـ في العبادة والطاعة والامتثال لأوامره.

وبنهاية سلسلة الأنبياء والرسل بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم برز الحديث عن وحدة "الأمة الإسلامية" التي تشمل كل المؤمنين باهـ ربـا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيـا ورسولا وبالقرآن الكريم وحيـا وهذا يـة [11].

إن ما عدا هذه العناصر في الخريطة المعرفية والعقدية لل المسلمين ينبغي أن لا يكون لها تأثير في مسـعـد "وحدة الأمة" ، ذلك أن الإصرار على تعظيم بعض التفاصـيل المذهبـية والطائفـية على حساب المبادـئ الجـامـعـة سـوء تـقدـير لمـقـصـدـ الجـمـعـ والتـوـحـيدـ وـذـهـابـ صـرـيـحـ وـسـرـيـعـ إـلـىـ آـنـفـاقـ الطـلـامـ وـالـخـوـفـ وـالـكـراـهـيـةـ ، وـلـاـ أـضـرـ بـالـأـمـةـ مـنـ اـلـانـجـارـ إـلـىـ هـذـهـ الـأـتـوـنـ الـضـيـقـةـ الـمـنـتـنـةـ ، فـفـيـهـ تـنـشـأـ أـشـوـاكـ التـطـرـفـ وـفـيـهـ تـجـدـ ضـوـارـيـةـ الـحـقـدـ مـاءـهـاـ وـمـرـعـاـهـاـ فـتـتـغـولـ وـتـخـرـجـ عـلـىـ جـمـهـورـ الـأـمـةـ بـخـطـابـاتـ التـفـرـيقـ وـالتـمـزـيقـ وـإـذـكـاءـ رـوـحـ التـقـاـلـ .ـ الـتـيـ تـقـطـعـ كـلـ سـبـبـ لـلـتـوـاـصـلـ .ـ لـأـنـ التـطـرـفـ مـنـ طـبـيـعـتـهـ الـابـتـعـادـ عـنـ الـوـسـطـ .ـ

ولعله من أهم مـواصفـاتـ مـفـهـومـ الـأـمـةـ وـمـطـالـبـهاـ فـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ أـنـهـاـ وـسـطـ ،ـ يـقـولـ تـعـالـىـ"ـ وـكـذـلـكـ جـعـلـنـاـكـمـ أـمـةـ وـسـطـاـ لـتـكـوـنـواـ شـهـادـاـ عـلـىـ النـاسـ وـيـكـوـنـ الرـسـوـلـ عـلـيـكـمـ شـهـيدـاـ"ـ [12]ـ ،ـ وـالـوـسـطـيـةـ مـنـ هـذـاـ الـجـانـبـ مـيـزةـ الـأـمـةـ الـمـحـمـدـيـةـ الـتـيـ بـهـاـ يـكـوـنـ شـهـودـهـاـ عـلـىـ الـعـالـمـيـنـ ،ـ وـهـيـ عـلـىـ مـعـانـ كـمـاـ ذـهـبـتـ الـدـكـتـورـةـ مـنـ أـبـوـ الفـضـلـ:

-أولاً : من حيث كونها محور جذب واستقطاب لكل المسلمين في العالم ، ومن ثم فهي مصدر للتوازن والانسجام بين الجماعات البشرية.

-ثانياً : من حيث الاعتدال في المزاج واحتذاب الإفراط والتفريط.

-ثالثاً : من حيث موازين القيم والأنظمة التي تقوم عليها الفردية والجماعية [13] .

وهذه المعاني كلها مجتمعة وغيرها كثير مما لم يذكر يستوجب الحرص على العمل المشترك.

والأمر لعمل الأمة الوحدوي والتشاركي أمر مستبطـنـ وـمـقـتضـيـ منـ آـيـاتـ الـوـحـدةـ ،ـ لـأـنـ عـظـمـ الـمـهـمـاتـ وـجـسـامـةـ

المسؤوليات التغذيرية لواقع الظلم والباطل في الأرض لا يقوم به وله الأفراد على توزع إراداتهم واختلاف قابليةهم ، بل لابد من نظام ناسق ومتناهٍ لهذه العملية الحيوية لبقاء أمة الإسلام واستمراريتها .

والحرص على الحركة الجماعية للأمة حرص على الفاعلية الوعائية والإنجاز البناء والوظيفي؛ لأن خلأ المجتمع المسلم آنئذ يجري بينها وفيها كيمياء روحية خاصة بسبب معطى الاجتماع والتوحد، فالعناصر الأولية إذا اجتمعت فقدت بالتربيّة الجماعية خصائصها الفردية السلبية من أنانية وحرص وضيق أفق وقطريّة أو مذهبية أو طائفية حابسة، وتحلت في المقابل بخصائص المجموع الإيجابية من تعاون وإيثار واتساع رؤية وأفق.

ولا ينبغي أن ينتج عن الاجتماع والوحدة تعطيل ملكات النقد في حركة الأمة الجماعية، فإنه ما غاب النقد إلا وغاب تقدير المآلات والمصالح بسقوط ملكة العقل، والشرع حين نبه على وجوبية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتبارهما أسمى الوظائف المجتمعية للأمة، فقد استلزم الخطاب ابتداء الوظيفة من حيث موقع الفاعلين أنفسهم ممارسة للنقد الذاتي المستمر قبل نقد الآخرين وتقويمهم، وهذا أسلم مسلك لتفادي أعطال الطريق من التقديس والتاليه والتعصيم لأفعال وإنجازات البشر المكلفين القائمين على مناصب رعاية حقوق الأمة وقيادتها .

إن وحدة الأمة لا يضرها النقد الذي المعنا إليه ولا يؤثر فيها بالسلب مادامت النية صادقة وخالصة، والتوجيه يأتي وفق النصيحة بآدابها وشروطها المعتبرة القاعدة للتصحيح والتنقیح لا مجرد الهدم والتجريح"فالدين النصيحة" [14]. وهي لا تتوقف على العوض أو حظر عاجل وإنما توقفت كما قال الشاطبي على اختيار الناصح والمنصوح ، وذلك يؤدي إلى أن لا يكون طلبها جازما [15] .

وعلى قدر ما يبذل في مسألة التقويم من جهد يؤتي العمل الجماعي والوحدواني والتكميلي للأمة أكله وثماره، حتى إذا عرض عارض مما يصيب المجتمعات بالعطب والعطل، وَجَدَتْ الأمة على ما فيها من مناعة تتعافى بسرعة وتنماذل للشفاء لأن التداعي المنصوص عليه في الحديث معناه التجاوب التلقائي والفوري لمتطلبات الإمامة. قال الشاطبي: "إذا يكون شد المؤمن للمؤمن على التمام إلا بهذا المعنى وأسبابه وكذلك لا يكونون كالجسد الواحد إلا إذا كان النفع واردا عليهم على السواء كل أحد بما يليق به، كما أن كل عضو من الجسد يأخذ من الغذاء بمقداره قسمة عدل، لا يزيد ولا ينقص، فلو أخذ بعض الأعضاء أكثر مما يحتاج إليه أو أقل لخرج عن اعتداله، وأصل هذا من الكتاب ما وصف الله به المؤمنين من أن بعضهم أولياء بعض وما أمروا به من اجتماع الكلمة والأخوة وترك الفرقة وهو كثير إذ لا يستقيم ذلك إلا بهذه

إذا تفحصنا الواقع، ألفينا أن الأمة الإسلامية تجتاز اليوم "مرحلة عصيبة ومحنة حقيقة، فأرضها مستباحة، وخيراتها منهوبة، وكرامتها مدوسة، وقرارها بيد غيرها لا بيدها، تكاثر عليها الأرذاء، وتزاحمت عليها سهام الأعداء، وأنهكتها الأزمات، لا تكاد تخرج من واحدة حتى تحل بساحتها أخرى ثانية وثالثة بل العشرات" [17]، وهي اللحظة التاريخية التي تحتاج إلى استجماع قواها ولــ"ـ شعثها لمواجهة مستقبلها الذي تملأه كيانات صهيونية على تحنيتها عنه وإزاحتها من قيادة مسرحه بما تخطمه من شرق أووسط جديد تحتل فيه الدولة اليهودية الفاسدة دور المحور ، ويدور فيه الباقيون في فلكها، وخرائط الطريق التي تمهد المشهد العالمي لسيطرة أمريكا ومخلبها المفروض في أرض فلسطين حتى لا يكون للأمة فرصة اجتماع كلمتها وتقرير مصيرها ومصير العالم الذي تعتبر شريكاً مساعداً في صناعته.

تحاج من أجل الرجوع لإمامية الأمة أن نقفز على جراح الخلافات العقيمة مصداقاً لقول الحق سبحانه: "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم" [18]، فإن المنازعات طريق سالكة للفشل والضعف، كما تحتاج أن نبني نفوساً موقنة في موعد \square بالتمكين للمؤمنين جميعاً في الأرض إن هم تحققوا بالشروط القرآنية في النهضة والقومة كما ينص عليها الكتاب العزيز" وعد \square الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الدين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، ولبيدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً" [19]، فإن أكثر معاول الهدم تأتي الأمة من النفوس المنهزمة أمام جبروت الاستكبار العالمي والمنبطة أمام الهيمنة الغربية على العقول المضيفة التي لا تلقي بالاً لقيمة الإنسان الذي يستطيع أن يصنع الخوارق إن هو استعاد إرادته واستعاد قراره وتخلى من التبعية وكسر طوق الإلحاد[20].

إن وحدة الأمة بات اليوم مطلباً من أولى الأولويات، بل هو في كل وقت كذلك، وهو بمنطق المقاديد والأصول مقدم على ما سواه من الواجبات لأنه يقع في مقام الوسائل لغيره من الغايات، وأنه يأتي من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[21]، إذ كيف يتصور اليوم تحرير المسجد الأقصى وفلسطين -على سبيل المثال- في غياب مفهوم الأمة، فتحريرها يقع على مسؤولية كافة أهل البلد فإن لم يستطعوا فعلى من بجوارهم فإن لم يستطعوا فعلى الجميع تقع المسؤولية لا تخلو منها ذمة واحد منهم أمام الله تعالى.

فمفهوم وحدة الأمة مفهوم لا تملك أن تفك عنه إطار المسؤولية المشتركة لكل من ينتمون إليه في كل ما يخصها، ولا تبرأ ذمة أحد من المسلمين حتى تكتفي الأمة جميعها من جميع حاجياتها وتنقطع عنها جميع مصارها ومخاطرها .

يقول الأستاذ عبد السلام ياسين: " إن جمع كلمة الأمة وائلف قلوبها ، وتقريب آرائها، لشروط ضرورية لإقامة الملة وتنمية الدولة. فلا تقل ضرورة ذلك عن ضرورة تقريب الفجوات فيما يتعلق بقسمة الأرزاق. وكما يجب على دولة القرآن أن تدمج فئات المجتمع دميا [اقتصاديا] بتسوية فرص العمل والكس، وبإنصاف العامل الأجير، وبإعطاء المالك مكانته في المجتمع الإسلامي بلا شطط، فكذلك يجب المحافظة على التوازن بين الآراء والتفاهم والتعاون ليتعدد الناس مادياً ومعنوياً . وليس المخربون والمخربون بالحق بـ[أنكارنا من المخربين المنتفعين في الدين]" [22]

وإن الإنسان ليعجب من فقه رئيس باطل بات اليوم يستشيري بين المسلمين تقوم الأحكام الجائرة المأجورة فيه على تغليب حقوق الأمة، فيفتى بحوار حصار شعب مسلم في غزة بجدار فولاذي لقتله ببطء تحت دعوى حماية الحدود وسيادة الدولة على أراضيها .

فأي سيادة على الأرض، حين تكون أرض لجوار مسلم مستباحة، فإن احتلال شبر من أرض المسلمين يخرج أرض الأمة في المجموع عن صفة الاستقلال، وأي معنى للسيادة المزعومة الملغومة إذا ما عورضت بحصار إنسان مسلم لمنعه من الطعام والشراب حتى يموت، أين هو فقه الموارنات لمصالح الأمة، وأين هو الفقه الجامع المتخلص من سلطان الجهل وسلطان التهديد الحبس أو القتل؟

إن الله تبارك وتعالى أدخل المرأة النار في هرة كما جاء في الحديث لأنها حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي سقتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض [23]، إذا كان هذا حال محاصرة حيوان فكيف يكون حال محاصرة إنسان، وليس أي إنسان، إنه إنسان كريم عند الله مسلم مجاهد مرابط على الثغور؟

إن كرامة الهرة ليست عند الله أعظم من كرامة أهل غزة المراطين، وإن الذين يحتقرؤن على تفتيت وحدة الأمة بفتاويهم ينبغي أن يذروا، فإن الله سائل كل واحد عما كان منه في شأن إخوانه المسلمين في عصره وسياقه التاريخي، فأقل القليل إن عجز الإنسان عن مناصرتهم مادياً أو معنوياً فليكف لسانه عنهم فلعله يكون أسلم له عند ربه عز وجل.

إننا مع إدراك الكثير منا لما يجمع بيننا نحن الشعوب الإسلامية ذات العقيدة الواحدة والحضارة الشاملة والتاريخ الواحد أو المتماثل والتتشكل النفسي المتشابه، ومع إدراكنا أن ثمة مشتركاً عاماً يجمع بيننا، ومع ما يؤكد هذه المشتركة العام من وحدة ما نعانيه من قمع عالمي واستبداد بنا من الدول الكبرى، ومن كراهية تجمعنا ضد الاستعمار الغربي وسياساته وما نشعر به من وحدة المصير، إلا أن

هذا المشترك العام كما يقول الدكتور طارق البشري لا يتحدد به في وضوح ما هو بالضبط ما يتعين أن نتحاكم به بين بعضنا البعض من وجوه النشاط وواجبات النهوض للدفاع والمقاومة [24].

[1] - الأنفال: 46.

[2] - المائدة: 2.

[3] - المائدة: 2.

[4] - طه عبد الرحمن: الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، ط1، 2005، ص21.

[5] - عبد الهاדי بوطالب: حقيقة الإسلام، إفريقيا الشرق، ط2، 2004، ص1212.

[6] - مسلم: الصحيح/8 البهقي: السنن الكبرى، 3/353، والطبراني: المعجم الصغير: 1/235.

[7] - الحجرات: 10.

[8] - آل عمران: 104.

[9] - الأنبياء: 96.

[10] - المؤمنون: 56.

[11] - يراجع: أحمد حسين: الأمة الإنسانية، المطبعة العالمية، القاهرة، 1966. ومحمد فتحي عثمان: دولة الفكرة التي أقامها رسول الإسلام عقب الهجرة، مكتبة وهبة، القاهرة، بدون تاريخ.

[12] - البقرة: 143.

- [13] - منى عبد المنعم أبو الفضل: الأمة القطب، نحو تأصيل منهاجي لمفهوم الأمة في الإسلام، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي(14)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996، ص45-46.
- [14] - مسلم: الصحيح، 1/53. أحمد: المسند، 5/318.
- [15] - الشاطبي: المواقفات، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة بيروت، 2/190.
- [16] - الشاطبي: المواقفات، 2/355.
- [17] - عبد السلام ياسين: إمامية الأمة، دار لبنان للطباعة والنشر، ط1، 2009، ص5.
- [18] - الأنفال: 46.
- [19] - النور: 55.
- [20] - راجع للمزید كتابنا: المخفى والمعلن في الخطاب الأمريكي، إصدار منشورات الزمن، الرباط المغرب، 2007.
- [21] - عن هذه القاعدة يراجع: الصنعاوي: إجابة السائل شرح بغية الآمل، مؤسسة الرسالة بيروت، ط1، 1986، ص286، والسبكي: الإبهاج شرح المنهاج، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1/118.
- [22] - عبد السلام ياسين: إمامية الأمة، ص258.
- [23] - البهبهاني: السنن الكبرى، 14/8 ابن ماجة: السنن، 2/1421. الدارمي: السنن، 2/462.
- [24] - طارق البشري: أمتی في العالم، حولية قضايا العالم الإسلامي، 2001-2002، ع5، ج1، مركز الحضارة للدراسات السياسية، مكتبة الشروق الدولية، ص11.

